انقـــلاب عظيم

فى السياسة الدولية

روسيا البلشفية فى عصبة الامم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تجوز العلائق الدولية فى تلك الآونة أعظم انقلاب عرفته منذ الحرب الكبرى ، وتستعد عصبة الأمم لاستقبال أعظم حادث عرفته فى تاريخها ؛ فمنذ أشهر يجرى الحديث بأن روسيا السوفيتية ستدعى إلى الالتحاق بعصبة الأمم ، وستندو عما قريب عضواً فيها ، وتتمتع بكرسي دائم فى مجلسها . وقد كان ذلك مثار دهشة وريب ممن يعرفون ظروف روسيا السوفيتية ، ونزوعها إلى التباعد عن الدول الغربية ، وما تقضى به طبيعة نظمها من مخاصمة الحكومات « الرأسمالية » ، ومناوأتها بكل الوسائل الخفية ، والعمل على هدمها وهدم النظم التى تحميها ، وإضرام نار « الثورة العالمية » . وقد كان للبلاشفة فى عصبة الأمم منذ قيامها رأى يناقض ما يرونه اليوم كل المناقضة ؛ فقد كانت فى نظرهم عصابة من الدول الرأسمالية تحركها هذه الدول وتوجهها كيف شاءت ، وهيئة استعمارية منافقة تعمل من وراء ستار لتحقيق غايات الاستعمار الغربى ، وأداة لتمكين نير الأمم القوية الغالبة من أعناق الأمم الضعيفة المغلوبة ؛ وكانت الحوادث تؤيد كثيراً من هذه الريب الظنون ، فلم تر الأمم الضعيفة ولا سيما الأمم الشرقية شيئا من الأنصاف على يد عصبة جنيف ، بل ابتدعت لها نظام الانتدابات أو الحماية المقنعة لتسبغ على استعبادها صفة مشروعة ، ولم تحاول مرة أن تحد من مزاعم الدول الاستعمارية أو أطماعها — وهذه الدول هى بعينها التى تسيطر على مجلس العصبة — ولم تجرؤ مرة على أن تصدر فى أى المسائل التى طرحت أمامها أى قرار يناقض آراء هذه الدول أو غاياتها ، ولا زلنا نذكر موقفها من النزاع بين تركيا وانكلترا على كردستان ، والنزاع بين الصين واليابان على منشوريا ، وخذلانها حينما احتلت إيطاليا كورفو ، وتحاملها فيما اقتضته من العراق شرطاً لالتحاقها بالعصبة ، وموقفها من أمانى فلسطين وسوريا ؛ ولا زلنا نذكر بالأخص موقفها العقيم من مسألة نزع السلاح وفشلها الذريع فى معالجتها ؛ وسواء أكانت روسيا السوفيتية مخلصة فى رأيها بالنسبة لعصبة الأمم أم كانت تمليه بواعث السياسة فقط ، فان العصبة لم تحقق خلال هذه الأعوام العديدة من حياتها شيئاً مما علق عليها من الآمال فى إنصاف الشعوب المظلومة أو تخفيف الخصومات القومية أو توطيد دعائم السلام .

والآن ماذا حدث ؟ لقد تطورت العلائق الدولية خلال الأعوام الأخيرة تطوراً سريعاً مدهشاً ؛ وأخذت روسيا تخفف من خصومتها للدول الغربية شيئاً فشيئاً ، وأخذت الدول الغربية فى التقرب من حكومة موسكو البلشفية ، بعد ما لبثت أعواماً تحاول القضاء عليها ، وتحشد لمناوأتها كل ما استطاعت من القوى الخفية والظاهرة ؛ وعاد عهد التوزان الأوربى القديم وعهد المعاهدات السرية والمحالفات السياسية والعسكرية ، وغاض ذلك الأفق المصطنع الذى ساد فيه حديث السلام والتضامن الدولى مدى حين . وقد كان من الطبيعى أن يعتبر التحاق روسيا بعصبة الأمم عاملاً فى صفاء الأفق الدولى ، وتعضيد قضية السلام ، لأن تباعدها عن الدول الغربية كان عقبة دائمة فى سبيل تقدم التفاهم الدولى واستقرار العلائق الدولية ، وعدم اعترافها بالعصبة يعرض جهودها فى سبيل السلام للانهيار : هذا على الأقل ما كان يتردد فى دوائر جنيف كلما حبط مسعى فى سبيل التفاهم أو مجهود فى سبيل نزع السلاح . ولكن التحاق روسيا اليوم بعصبة الأمم يدلى بمعان أخرى . وروسيا لم تغير رأيها فى العصبة ولا فى الدول « الرأسمالية » التى تتكون منها ؛ ولكن روسيا اليوم تعلق على هذا الانضمام آمالاً كبيرة وترى أنه يحقق لها من المصالح مالم تحققه سياسة القطيعة والعزلة ، والسياسة الغربية التى تسعى منذ حين لتحقيق هذا الانضمام تحاول أن تقنعنا بأنه يزيد العصبة قوة ويزيد كلمة أوربا توحيداً ، ويقرب أمد التفاهم فى مسألة نزع السلاح ، ويعاون على استقرار السلم فى أوربا ؛ ولكن الحقيقة أن هذه النظرية القديمة قد تطورت اليوم ، وما ترشيح روسيا لدخول العصبة الا نتيجة لسياسة التوزان الأوربى الجديدة التى ظهرت

بوادرها قوية منذ قيام الحركة الوطنية الأشتراكية فى ألمانيا وظهورها بمظهر المهدد لسلام أوربا ، وفشل مفاوضات نزع السلاح وعود فرنسا صراحة إلى السياسة القومية القديمة بحجة الدفاع عن نفسها أمام الخطر الألمانى . ومنذ عامين ونحن نشهد نتائج هذا التطور الجديد ، فى وقوع الجفاء بين ألمانيا وروسيا أولاً ، ثم انتهاز فرنسا لهذه الفرصة وتقربها من روسيا ، وتفاهم الدولتين على إحياء التحالف الفرنسى الروسى القديم الذى كان قائماً قبل الحرب ، ثم مساعى السياسة الفرنسية المتواصلة فى جمع كلمة دول أوربا الشرقية حولها فى كتلة واحدة تخاصم ألمانيا جميعاً ، وحملها حليفاتها دول الائتلاف الصغير على الاعتراف بروسيا السوفيتية ، وسعيها أخيراً فى ضم روسيا السوفيتية إلى عصبة جنيف .

ولروسيا صلة قديمة بعصبة الأمم وإن لم تكن من أعضائها ، فقد اشتركت فى لجنة نزع السلاح ومؤتمراته بصفة رسمية منذ سنة ١٩٢٥ ، و قدمت اليها عدة مشاريع لنزع السلاح كانت جميعها مثار البحث والمناقشة ولكنها رفضت جميعا ، وكانت السياسة الروسية خلال هذه الأعوام تثابر على خصومتها لعصبة الأمم وعلى الطعن فيها وفى نزاهة مقاصدها ، وتتخذ من فشل مؤتمر نزع السلاح دليلا على نفاق الدول الغربية وتمسكها بسياسة الحرب القديمة ، وبالأخص على اتهامها بروسيا السوفيتية . أما اليوم فان روسيا لا تأبى التفاهم مع الدول الغربيـة والأندماج فى فى عصبة جنيف . ووراء هذا التطور الخطير فى سياسة البلاشفة عاملان جوهريان : الأول حوادث الشرق الأقصى ، والثانى موقف الدول الغربية من روسيا السوفيتية ، فأما فى الشرق الأقصى حيث تسيطر روسيا على أراض ومصالح عظيمة ، فقد نشط الاستعمار اليابانى فى الأيام الأخيرة نشاطا عظيما وانتزع إقليم منشوريا من الصين ، ولم تحفل اليابان باحتجاج الدول الغربية أو تدخل عصبة الأمم ، وآثرت أن تنسحب من العصبة لكى تكون مطلقة اليدين فى تنفيذ برنامجها الاستعمارى ، ولم تحجم عن أن تصرح بأنها تعتبر الصين ميدان نشاطها وتوسعها دون غيرها من دول الغرب ، وأنها ستقاوم كل محاولة جديدة تقوم بها الدول الغربية لتوسيع نفوذها أو مصالحها فى الصين ، ولما كانت روسيا تجاور اليابان فى الشرق الأقصى فى أكثر من منطقة ، فان هذه السياسة اليابانية الجديدة التى تؤازرها عسكرية قوية تهدد أملاكها ومصالحها أعظم تهديد ، وروسيا تريد من أجل ذلك أن تصفى خصومتها مع الدول الغربية لكى تستطيع أن تتفرغ لمقاومة هذا الخطر . وأما عن موقف الدول الغربية إزاء روسيا السوفيتية ، فان هذه الدول قد نبذت خصومتها المطلقة القديمة لروسيا بعد ما اقتنعت بأنه يستحيل عليها أن تسحق الثورة البلشفية ، وبعد ما تطورت البلشفية ذاتها وتركت كثيراً من تطرفها القديم وآثرت جانب الاعتدال ، وأصبحت روسيا تميل الى العود إلى حظيرة أوربا القديمة والتفاهم مع الدول الغربية وإعطاء بعض الضمانات السياسية والاقتصادية ، وقد كانت السياسة الفرنسية روح هذه التطور كما بينا لأن فرنسا أشد الدول اهتماما باكتساب تلك القوة العظيمة فى شرق أوربا ، لتعود كما كانت قبل الحرب مصدرا للخطر على ألمانيا يزعجها ويشغلها .

وقد نجحت السياسة الفرنسية فى إقناع انكلترا وإيطاليا بتعضيد التحاق روسيا بالعصبة ، وهذه الدول هى التى تسيطر على مجلس العصبة (بعد انسحاب اليابان وألمانيا) وجرت مفاوضات تمهيدية بين فرنسا ومعظم الدول المنضمة الى العصبة لتوافق على قبول روسيا ، واستطاعت أن تحقق الاصوات اللازمة لذلك ، ويشترط لقبول الدولة المرشحة أن يؤيد قبولها ثلثا أصوات الجمعية العمومية واليك ما ورد فى ميثاق العصبة بخصوص ذلك .

« كل دولة ، أوملك مستقل (دومنيون) أو مستعمرة تحكم نفسها حرة لم يرد اسمها فى الملحق (ملحق الدول المنضمة) تستطيع أن تغدو عضوا فى العصبة اذا وافق على دخولها ثلثا الجمعية العمومية بشرط أن تقدم الضمانات اللازمة على إخلاص مقاصدها وعلى مراعاة تعهداتها الدولية ، وأن تقبل القواعد التى تقررها العصبة بخصوص القوات والتسليحات العسكرية والبحرية والجوية » (المادة الاولى الفقرة الثانية)

« تتألف الجمعية العمومية من ممثلى أعضاء العصبة ، وتجتمع فى أوقات معينة أو فى أى وقت آخر إذا اقتضت الظروف ذلك فى مركز العصبة أو فى أى محل آخر يختار لذلك ، وتختص الجمعية بالنظر فى كل مسألة تدخل فى دائرة نشاط العصبة أو تتعلق بسلام العالم ، ولا يجوز لأى عضو فى العصبة أن يختار لتمثيله فى الجمعية أكثر من ثلاثة مندوبين ولا يحق له أكثر من صوت » (المادة الرابعة)

وأما عن مجلس العصبة فقد ورد فى الميثاق مايأتى : « يتكون المجلس من ممثلى الدول الكبرى الحالفة والمشتركة ، وكذلك من ممثلى أربعـة أخر من أعضاء العصبة . وهؤلاء الأربعة تختارهم الجمعية حسب رغبتها وفى الوقت الذى تختاره لذلك . . . ويستطيع المجلس بموافقة أغلبية الجمعية أن يعين أعضاء آخرين من أعضاء العصبة يكون لهم كرسى دائم فى المجلس ، ويستطيع بنفس الطريقة أن يزيد فى عدد أعضاء العصبة الذين تختارهم الجمعية للمثول فى المجلس» (المادة الرابعة فقرة أولى وثانية) .

أوردنا هذه النصوص لنبين الاجراءات اللازمة لالتحاق دولة ما بالعصبة ، ثم لنبين أهمية الكرسى الدائم فى المجلس ، ذلك أن روسيا مرشحة للفوز بكرسى دائم فى المجلس الى جانب باقى الدول العظمى ، وقد تمت الاجراءات الخاصة بترشيح روسيا فى الجمعية العمومية ، وحصلت روسيا على أكثر من ثلثى أصوات الجمعية ، ولم يعارض فى قبولها سوى ثلاث دول أو أربع هى سويسرا وهولندا والأرجنتين وبلجيكا ، وعقب ذلك دعوة العصبة لروسيا للانضمام اليها وقبول روسيا لهذه الدعوة ؛ وبذا تمت الاجراءات وغدت روسيا عضواً فى عصبة الأمم ، أو بعبارة أخرى فى الهيئة التى شد ماخاصمتها وحملت عليها ، ومما يلفت النظر أن هـذه الاجراءات تجرى وروسيا بعيدة عنها لاتحرك ساكناً ولاتصرح بشىء ولا تعلق صحفها بكلمة ، ولتشيتشوف المشرف على الشئون الخارجية الروسية يقيم فى أحد مصايف فرنسا الجنوبية . ذلك أن هذه الحركة كلها من صنع فرنسا وهى التى تحمل كل أعبائها وتسهر على تنفيذها ، وقد جرت جميع المفاوضات بشأنها وراء الستار مما أدى الى احتجاج بعض أعضاء العصبة ، فقد حمل مستر دى فاليرا ممثل إرلندة على هذه السرية ، ونوه بما فيها من الشذوذ . ولكن كل شىء يسير مع ذلك وفقاً للبرنامج المرسوم .

ومن المعروف أن دخول تركيا فى العصبة انما هو نتيجة لدخول روسيا فيها . وقد كانت تركيا تحذو حذو حليفتها الكبيرة فى موقفها إزاء العصبة وتنظر اليها بنفس نظرتها ، وهى الآن تسير وراءها فى سياستها الجديدة .

* * *

ولهذا التطور الذى انتهى بأقبال روسيا على عصبة الأمم واندماجها فى زمرة الدول الغربية مغزى عظيم فيما يتعلق بمصاير روسيا البلشفية ذاتها ، فقد كان شعار موسكو منذ ظفر البلشفية فى سنة ١٩١٧ ، خصومة العالم « الرأسمالى » كله ، والعمل على إضرام نار الثورة العالمية فى سائر جنباته ؛ ولم يقبل البلاشفة فى ذلك أى مناقشة أو هوادة ، وكانت الشيوعية تتقدم فى غزو الدول الصناعيـــة تقدماً حثيثاً ، وتؤازرها موسكو بكل ما وسعت . ولكن البلشفية لم تستطع أن تعيش طويلا بمثلها وغاياتها المتطرفة ولم تلبث أن تأثرت بقطيعة العالم ومقاومته ، واضطرت أخيراً أن تسلك مسلك الاعتدال سواء فى سياستها الداخلية أو الخارجية . ورأى سادة موسكو أن موارد روسيا البلشفية وقواها المـادية والمعنوية تتحطم تباعاً أمام ضربات الدول الغربية ، وأن روسيا لا تستطيع الحيـاة الى الأبد فى ظل نظام يؤلب عليها العالم كله ، ويحرمها من كل عطف وتعاون ، فجنحوا الى تغيير السياسة القديمة ومدوا يدهم الى الدول الغربية ، ولم تهمل الدول الغربية الانتفاع بهذه الفرصة فمدت يدها الى روسيا وجذبتها الى حظيرتها . فالآن نستطيع أن نقول إن البلشفية قد دخلت فى دور انحلالها ، وأنها تنزل شيئاً فشيئاً عن مثلها وغاياتها الثورية المتطرفة ، وأن روسيا تعود شيئاً فشيئاً الى حظيرة الماضى ، فى ظل نوع من اشتراكية الدولة لايلبث أن يستقر أو يختفى مع الزمن .

وترى الدول الغربية أن دخول روسـيا فى العصبة يقويها كهيئة دولية ويزيد فى هيبتها ونفوذها فى سير السياسة الأوربية خصوصا بعد أن غادرتها اليابان ثم ألمانيا . وقد يكون ذلك صحيحاً من الوجهة المحلية ، لأن العصبة تتخلص بذلك من خصم قوى كان يشتد فى مناوأتها ، وتكسب نفوذاً جديداً فى مسائل أوربا الشرقية . ولكن العصبة لا تكسب كثيراً من الوجهة العامة ، ذلك لأنها قد خسرت كثيراً من هيبتها ونفوذها خلال الأعوام الأخيرة ، ونستطيع أن نقول إنها فقدت نهائياً ثقة العالم كعامل فى توطيد السلم العالمى ، وأداة من أدوات التفاهم الدولى والعدالة الدولية ؛ وقد اختفت مثل العصبة القـديمة بعد تخبط وفشل استمرا منذ قيامها ، وبعد أن قدمت الأدلة العملية العديدة على أنها لا تستطيع العمل إلا فى الدائرة التى ترسمها لها الدول المستعمرة المسيطرة على مجلسها وعلى ارادتها .